

الباب الأول

(١) نشأة الماركسية

يرى بعض الناس فى الماركسية مجرد حركة سياسية أو اجتماعية شبيهة بغيرها من الحركات السياسية والاجتماعية ، فهى عند هؤلاء مجرد منهج للحكم ، أو مجرد حل فنى للمشاكل الاقتصادية ، بينما يذهب آخرون الى أن الماركسية ليست الا حركة وصولية تهدف الى تحقيق غاياتها عن طريق اشارة الجماهير بالشعارات البراقة ، والعبارات الضخمة ، والخطب الرنانة .

أما الماركسيون فانهم يقدمونها على أنها مذهب شامل متكامل ، له رأيه الخاص فى الانسان والتاريخ ، فى الفرد والمجتمع ، فى الطبيعة والخالق ، مذهب نظرى وتطبيق عملى على السواء .

عندما ظهرت الماركسية فى القرن التاسع عشر كان هناك اتجاهان فكريان يسودان أوربا : المسيحية ، والمذهب الفردى ، أما المسيحية فهى قائمة على الطبقية فى الكائنات والأعمال والقيم والأشخاص . وأما المذهب الفردى فقد ظهر فى القرن السادس عشر على يد الفيلسوف الفرنسى "Montaigne"

(مونتني) (١٥٣٣ - ١٥٩٢) هذا المذهب يرى أن الفرد هو الحقيقة الأساسية فى هذا الوجود لأنه يملك العقل . والفرد له جانبان : عام وخاص فالخاص يقوم على حاجات الفرد الشخصية ، والعام يتناول حاجات المجتمع والبيئة . وهناك انسجام تلقائى بين الجانبين : الخاص والعام ، كما أن هناك انسجاما

بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة (أى مصلحة جميع الأفراد) ، بين الحقوق والواجبات ، بين الطبيعة والانسان .

هذا المذهب الفردى الذى يرفض الطبقيّة الكنسية ، ويبشر بالانسجام بين الانسان وغيره - قام ليعارض نظام الكنيسة ، وهو يتلاءم تماما مع المذهب الليبرالى "Le Libéralisme" الذى يدعو الى الحرية الانسانية والى تحكيم العقل فى كل شئون الحياة ، الأمر الذى يتعارض مع اتجاه الكنيسة التى ترى أن مسائل الاعتقاد خارجة عن دائرة العقل . وقد أدى ظهور هذين المذهبين وانتشارهما الى ضعف سلطة رجال الدين ، وتقلص نفوذ طبقة الاشراف ، وظهور الطبقة البورجوازية "La Bourgeoisie" أو ما يسمى بالطبقة الوسطى .

كان النظام الاقتصادى السائد فى أوروبا فى القرون الوسطى هو نظام الاقطاع القائم على ملكية فرد لمساحات شاسعة من الأراضى بما عليها من عقارات ومخلوقات ، وكان فلاحو الأرض يعدون عبيدا لمالك الأرض . ومع ظهور المذهب الفردى ، والمذهب الليبرالى بدأت طبقة أخرى فى الظهور هى الطبقة الوسطى (البورجوازية) ، وهى تتكون من التجار والموظفين والمحامين والأطباء . الخ . أى هؤلاء الذين لا ينتمون الى الطبقة الارستقراطية المتمثلة فى الأشراف ورجال الدين ، ولا ينتمون الى طبقة عبيد الأرض .

وبظهور الصناعة الحديثة ، واستخدام البخار والآلة ، وتأسيس المصانع الكبيرة برز الى الوجود نظام اقتصادى جديد ، هو النظام الرأسمالى الذى ولد فى أحضان البورجوازية ، كما ظهرت طبقة جديدة ، هى طبقة البر "Le Prolétariat" أى طبقة العمال .

وفى القرن التاسع عشر - وحركة التصنيع فى أوجها ،

والرأسمالية فى أسعد أيامها - قام رجل ألمانى يدعى : « كارل ماركس » ليبشر بمذهب جديد ، فبينما يرى المذهب الفردى أن هناك انسجاما تلقائيا بين الفرد والمجتمع . . بين الانسان والطبيعة . . بين الحقوق والواجبات - يرى « ماركس » عكس ذلك ، يرى أن ظهور المصانع الكبرى والنظام الرأسمالى أدى الى تناقضات فى المجتمع ، لقد استلزم تأسيس المصانع الكبرى ظهور طبقة العمال ، كما أن النظام الرأسمالى قد أدى الى ظهور الاستخدام والافقار لطبقة كبرى من المجتمع ، وهى طبقة العمال ، انها طبقة مستغلة مستعبدة مستذلة من قبل البورجوازية الرأسمالية التى تستولى على حصيلة جهدها وعرقها ولا تعطيها الا الكفاف ، وبذلك يزداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا وتزداد الفوارق بين الطبقات ، ان الأطفال فى سن السابعة يعملون فى المناجم ثمانية عشرة ساعة فى اليوم فى مقابل دريهمات لا تشبع بطنها ولا تكسو جسدا عاريا ، ان طبقة العمال ذات مصالح تتعارض مع مصالح الرأسمالية ، وبالتالي فعليها أن تكافح من أجل تحقيق مصالحها .

فبينما يرى المذهب الفردى أن هناك انسجاما تلقائيا بين أفراد المجتمع ، وبين الفرد والبيئة ، وبين الفرد والطبيعة - يرى « ماركس » أن هناك تناقضات فى الانسان والمجتمع ، وبناء على هذا فان المصلحة الفردية (الخاصة) قد تتعارض - وهى غالبا ما تتعارض - مع المصلحة العامة . ان رغبات الأفراد - وبصفة خاصة رغبات بعض الطبقات الاجتماعية - وبالتالي مصالحهم لا تتفق تلقائيا مع العقل ولا مع العلم . كما أن الانسجام بين الانسان والطبيعة هو غير موجود . فالانسان يصارع الطبيعة ، لا ينبغى أن يقف سلبيا ازاءها يتأملها أو يغرق فيها بطريقة رومانتيكية ، بل يجب أن يصارعها (م - ٢ الفكر الماركسي)

ويهزمها ويسيطر عليها بالعمل وبالفن وبالمعرفة العلمية ،
وبهذا يحقق ذاته •

فالماركسية قائمة أساسا على وجود التناقضات فى المجتمع ،
والتناقضات بين الطبقات ومصالحها المختلفة ، وهى تدعو
طبقة العمال الى الصراع من أجل أن تسود هى المجتمع
وتتغلب عليه لتحقيق مصالحها •

(٢) «ماركس» والمادية الجدلية

منذ العصور القديمة وهناك فلسفتان متميزتان تتحكمان
فى أفكار الناس ، هما : الفلسفة المادية والفلسفة المثالية •

الأولى هى التى تقول : انه ليس فى الوجود الا المادة التى
تحس ووسيلة ادراكها هو الحس وحده ، والثانية التى تقول :
انه بجوار هذه المادة المحسوسة توجد أشياء أخرى غير
محسوسة ، وبالتالى فهى غير مادية وذلك كالروح
والنقل ... الخ •

ولقد كانت فلسفة « ماركس » التى وضعها لتنظيم كفاح
العمال ضد الرأسمالية فلسفة مادية تنكر وجود أى شىء
سوى المادة •

والفلسفة المادية قديمة جدا ، ففلسفة اليونان الأولون
المعروفون باسم الطبيعيين الأولين كانوا ماديين يبحثون عن
المادة الأولى التى تكون منها هذا العالم ، وفلاسفة الهنود
الأقدمون كانوا يرون أن العالم يتكون من أربعة عناصر :
الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ويقولون ان العالم
يتطور بفعل طبيعته ذاتها •

وتطورت الفلسفة المادية القديمة على يد « ديمقريطس »
الذى يرى أن العالم يتألف من ذرات ، وهى جزيئات لا ترى ،
تختلف فى الشكل والحجم ، أبدية ، وهى لا تنقسم ، وتتكون
الأشياء من التقاء هذه الذرات ، وتنعدم بتفريق هذه الذرات .

أما « أفلاطون » فقد كان يرى أن الوجود الحق انما هو
لعالم « المثل » ، أما الوجود المادى فهو وجود صورى فقط ،
ومن ثم فقد كان أفلاطون فيلسوفا مثاليا .

أما « أرسطو » فقد انتقد نظرية المثل الافلاطونية ، وقال
بتنوع الموجودات بين مادى وروحى ، كلاهما يتمتع بوجود
حقيقى .

ومن هنا يتبين أن الفلسفة المادية التى تقول : انه
لا موجود الا المادة - هى فلسفة قديمة .

أما الجدلية فمعناها القول بالتطور الذاتى للأشياء .
وقد ظهرت الجدلية بهذا المعنى على يد الفيلسوف

اليونانى « هيراقليطس » الذى كان يذهب الى أن كل شىء هو
فى تغير مستمر ، وكان يرى أن النار هى المادة الأولى للكون ،
والعالم فى نظره نار حية أزلا وأبدا تشتعل بانتظام وتخمد
بانتظام .

كما أن الفيلسوف اليونانى « انكمشندر » كان يرى أن
الكائنات الحية ظهرت فى صورة دنيئة ثم تدرجت فى
التطور ، حتى الانسان نفسه كان سمكا يعيش فى الماء ثم
خرج الى الارض ، وبفعل البيئة تحولت الزعانف الى أعضاء
وجوارح لمساعدة الانسان على الحياة ، والتكيف مع البيئة .

ولقد تطورت هذه النظرية لدى « دارون » الذى يقول بالتطور وبالانتخاب الطبيعى ، وبالصراع وبقاء الاصلىح .

فالقول بأنه لا موجود الا المادة ، وبالتطور الطبيعى للأشياء والمجتمعات هو أساس الفلسفة الماركسية ، وهذا ما يسمى بالمادية الجدلية . وهذه الآراء كما رأينا ليست حديثة بل هى موجودة أساسا فى الفلسفات القديمة ، وكل ما فعله « ماركس » هو أنه جمع بين المادية والجدلية فى نظرية واحدة .

(٣) العلاقة بين الجدلية والتطور

ان كل جهد يبذل من أجل الوصول الى الحقيقة ، ومن أجل التقدم فى المعرفة الانسانية يقوم على المواجهة بين قضيتين متعارضتين ، بين الاثبات والنفى ، بين التأييد والمعارضة . هذا أمر لا نقاش فيه ، ويعتبر من المسلمات .

ولكن من أين يأتى التعارض بين القضيتين ؟ هنا سؤال يعتبر دقيقا للغاية .

يقال - بصفة عامة - ان الخلاف والتعارض بين الأفراد الذين يفكرون ويعبرون يأتى من أخطائهم ومن النقص فى تفكيرهم ، ولو أنهم جديرون بالتفكير السليم ويملكون أدواته الضرورية من حدس أو عبقرية فأنهم يستطيعون الوصول بدون مشقة الى ادراك الحقيقة .

هذه النظرية التى يقول بها معظم الفلاسفة ، ويقول بها أيضا الحس المشترك - تنسب التناقض فى الفكر الى نقص هذا الفكر فقط ، والى الحقيقة القائلة : ان كل تفكير انسانى هو غير كامل .

والفلسفة الماركسية ، وإن كانت تسلم بذلك فى بعض الحالات - كما يدل على ذلك أنه - فى بعض المسائل - يمكن الوصول - بعد التحقيق والفحص والتدقيق - الى اتفاق بين المتعارضين والخروج من التناقض - الا أنها لا تسلم بهذه النظرية على علاتها ، وترى أنها غير كافية لتفسير التناقض بين الأفراد الذين يفكرون •

فالتعارض بين القضايا لا يرجع فقط الى نقص فى التفكير الذى لا يستطيع ادراك جميع جوانب القضية ، بل يجب التسليم بأن موضوعات التفكير نفسها تحتوى على هذا التعارض ، وأن التعارض يجد نقطة انطلاقه فى موضوعات التفكير ذاتها ، وبعبارة أخرى : ان التعارض الشخصى بين الأفراد له وجود حقيقى فى الخارج وليس ذهنيا فقط •

فاذا كان هناك نفي وإثبات فليس مرجع ذلك الى أن الحقيقة لها جوانب متعددة لا يستطيع الفكر الانسانى ادراكها جميعا ، ولكن لأن لها جوانب متغيرة ومتعارضة ، فالعقل الانسانى مضطر الى أن يستوعب هذه الجوانب المتغيرة ، وهذه المتناقضات حتى يصل الى الحقيقة •

هناك اذن موقفان مختلفان ازاء هذه المتعارضات والمتناقضات :

الموقف الأول : يقول ان هذا التناقض ظاهرى فقط ، وهو يأتى من نقص التفكير الانسانى الذى لا يستطيع ادراك جميع جوانب الحقيقة ، فالانسان عاجز عن الوصول الى الحقيقة بمجرد عقله ، وعليه أن يعتمد على الالهام أو الوحي - وهذا هو موقف الدين •

الموقف الثانى : يرى أن هذا التعارض حقيقى ، والعقل الانسانى مضطر الى ادراك الجوانب المتناقضة فى الشيء ، وهذا التناقض يأتى من جهة التغير المستمر والتطور - وهذا هو موقف الفلاسفة الماركسية ، فالجدلية عندها تعنى التناقض الذاتى فى الأشياء ، وهو ناشئ عن التطور الذاتى ، وهو تطور من أدنى الى أعلى دائما .

(٤) المنهج الجدلى

عندما يتجه الانسان الى تحصيل نوع من أنواع المعرفة فإنه يضع لنفسه غاية معينة يهدف اليها - ولكن هذا وحده ليس كافيا لتحصيل المعرفة ، بل لابد أن يهتدى الانسان الى الطريق السوى الذى ينتهى به الى هذه الغاية ، وهو ما يعرف باسم المنهج .

فالمنهج هو : مجموع المبادئ والأساليب التى تصل بالباحث الى هدفه .

والمنهج ضرورى لحل المشاكل العلمية والعملية ، فإذا أراد الانسان أن يحل مسألة رياضية كان لزاما عليه أن يعرف مناهج الرياضه ، وإذا أراد أن يدرس قاعدة نحوية كان لزاما عليه أن يعرف منهج علم النحو ، وهكذا .

والمنهج يتحدد بطبيعة الموضوع الذى يبحثه الشخص ، ولذا اختلفت المناهج وتعددت بتعدد مجالات العلوم وموضوعاتها ، فكل فرع من فروع العلم ، وكل نوع من أنواع النشاط العلمى له مناهجه الخاصة ، ولا يمكن لشخص أن يستعين بمناهج فرع من فروع العلم فى دراسة فرع آخر .

وللفلسفة الماركسية منهجها الخاص وهو الجدل المادى -

والماركسيون يرون أن هذا المنهج يختلف عن مناهج العلوم المختلفة ، اذ يبسر الطريق الى فهم كل ميادين الطبيعة والمجتمع والفكر - خلافا لمناهج العلوم المفردة التى لا تعين الا على فهم دجال واحد من مجالات العلم والعمل .

والجدل كان يطلق قديما على فن المناظرة بين الخصوم الذى يعتمد على كشف التناقض فى حججهم ، وهو فى عرف الماركسية : منهج لمعرفة الواقع ، اذ يدرس الكون على حقيقته ، هذا الكون المتغير دائما المتطور أبدا .

والماركسيون يرون أن منهجهم هذا هو المنهج العلمى الوحيد ، اذ أنه يستند الى أحدث انجازات العلم والخبرة الانسانية ، فهو يرى أن العالم فى حركة دائمة وفى تجدد مستمر ، وليس هناك شىء مطلق ، كل ما فى الكون يتطور باستمرار ويتجه فى حركته من أدنى الى أعلى . وحركة الكون وتطوره الدائمان نابعان من التناقضات الكامنة فى جميع أجزائه هذه التناقضات التى تؤدى الى صراع بين الجديد والقديم ، صراع ينتهى بالانتصار الحتمى للجديد .

وعلى عكس العلوم الخاصة - التى يختص كل منها بمجال معين - تدرس المادية الجدلية القوانين العامة التى تقوم بدورها فى كل مجالات الوجود ، فكل ما فى الكون - من أشياء حية وغير حية ، وظواهر اجتماعية ، وفكر يتطور حسب قانون وحدة وصراع الاضداد ، وقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية .

فالمادية الجدلية علم يكشف القوانين العامة التى تحكم تطور

العالم المادى وطرق معرفة هذا العالم وتحوله الثورى .

وقد ألح « هاركس » و « انجلز » على وجود الطبيعة المادية الجدلية للتطور فى الحياة الاجتماعية ، وهو ما يسمى بالمادية التاريخية التى تكشف القوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع .

وقد اعتمدت المادية الجدلية على ثلاثة اكتشافات علمية كبرى كان لها أثرها الذى لا ينكر فى تشكيل نظرتها الى الطبيعة . هذه الاكتشافات الثلاثة هى :

١ - قانون بقاء الطاقة وتحولها الذى يذهب الى الوحدة المادية للعالم ، وبقاء المادة والحركة ، وقابليتهما للتحول من شكل الى آخر .

٢ - نظرية تركيب الانسجة الحية من خلايا ، فقد دلت هذه النظرية على أن أى كائن مركب يتكون من خلايا - والخلية عنصر مادى ، وهى قابلة للتغير .

٣ - ثم جاء « داروين » بنظرية تطور الكائنات الحية تطورا ذاتيا بعامل تنازع البقاء ، وبقاء الاصلح .

ومن جهة أخرى فقد تأثرت الماركسية بفلسفة « هيجل » ، (١٧٧٠ - ١٨٣١) فان « ماركس » وصديقه « انجلز » - وهما واضعا أسس الماركسية - كانا قد تأثرا فى شبابهما بفلسفة « هيجل » المثالية ، وآمنابها - هذه الفلسفة التى تذهب الى أن

العالم من خلق فكرة مجردة عن المادة - هذه الفكرة هي ذات وجود موضوعي ، وجود خارج الانسان - وقد أطلق « هيجل » على هذه الفكرة المجردة اسم « الوعي » ، و « الفكرة المطلقة » ، و « الروح الشامل » .

ويرى « هيجل » أن هذه الفكرة تتطور أولا تطورا ذاتيا ، ثم تتجسد في هذا العالم الطبيعي فينشأ عن هذا التجسد هذه الأشياء والظواهر المتعددة ، ثم تخلق الفكرة - بعد ذلك - الانسان - ويرى هيجل أن تاريخ الانسان هو عبارة عن محاولات مستمرة لادراك هذه الفكرة الخالقة ، وأن هذا الادراك قد تم واكتمل في مذهب الفلسفي .

ومن جهة أخرى فإن « هيجل » قد وضع قوانين الجدل التي تحكم تطور الفكرة - هذا التطور الذي ينتج من الأدنى الى الأعلى ، كما بين أن التناقضات الداخلية هي أساس التطور .

وقد اعتنق « ماركس » و « انجلز » في البداية فلسفة « هيجل » المثالية وتأثرا بمذهبه في الجدلية والتطور الذاتي - ثم في مرحلة تالية رفضا مثالية هيجل - وان استمر تأثرهما بجدليته .

كما تأثر « ماركس » و « انجلز » بالفيلسوف الألماني « فيورباخ » (١٨٠٤ - ١٨٧١) وهو فيلسوف مادي ، رفض الفلسفة المثالية ودعا الى اهتمام الفلسفة بدراسة الطبيعة والانسان - وأن هذه هي الرسالة الحقيقية للفلسفة وليس الاكتفاء بدراسة الفكر الخالص . وهو يرى أن الانسان جزء من الطبيعة ونتيجة لتطورها .

والطبيعة هي الحقيقة الموضوعية الأولى ، وهي سابقة في الوجود على الفكر .

(٥) موضوع الفلسفة الماركسية

إذا تتبعنا تاريخ الفلسفة وجدنا أنها لم تثبت منذ نشأتها على موضوع واحد ، بل ان موضوع الفلسفة كان يتغير باستمرار من عصر الى عصر بل من فيلسوف الى فيلسوف .

فموضوع الفلسفة عند الطبيعيين الأولين من فلاسفة اليونان (طاليس - أنكسمندر - أنكسمينس - هيراقليطس) هو مادة الكون ، فالأول يرى أنها الماء ، والثانى يرى أنها مادة تجمع جميع الصفات ، وسماها بـ « اللامتناهى » ، وأنكسمينس يرى أنها الهواء ، بينما يذهب الأخير الى أنها النار .

ثم جاء « السوفسطائيون » فى القرن الخامس قبل الميلاد فحولوا الفلسفة من البحث فى الطبيعة الى البحث فى الانسان ، اذ وجدوا أن الفلاسفة السابقين لم يتفقوا على رأى واحد فى مادة الكون ، فرأوا أنه ينبغى وضع نهاية لهذا البحث الذى لا جدوى من ورائه ، وأن الواجب أن تهتم الفلسفة بدراسة الانسان من جانبين : جانب السلوك ، وجانب المهارة فى الحرفة ، وأهمها المهارة فى الخطابة وحسن التعبير وطريقة التغلب على الخصوم بالحق أو بالباطل .

أما « سقراط » - الذى وهب حياته لمنازلة السوفسطائيين ودحض أفكارهم فموضوع الفلسفة عنده هو الانسان من حيث معرفته للفضيلة ، وسلوكه تبعاً لهذه المعرفة .

أما « أفلاطون » فموضوع الفلسفة عنده يشمل الانسان والطبيعة والمبدأ الأول .

وأما « ارسطو » فالفلسفة عنده تشمل جميع أنواع المعرفة

من نظرية وعملية ، ويندرج تحتها علوم الطبيعة ، والرياضة ،
والآلهيات (وهى الفلسفة النظرية) والفن ، والأخلاق ،
والاقتصاد ، والسياسة (وهى الفلسفة العملية) - وقد
اعتبر المنطق مقدمة ضرورية لدراسة جميع هذه الفروع .

ثم يأتى بعد ذلك « الابقوريون » والرواقيون ليهتموا بفرع
واحد من ذلك كله : الأخلاق .

وفى القرون الوسطى اهتمت الفلسفة بالجانب الآلهى فقط ،
وان كان الفلاسفة الاسلاميون قد درسوا تراث « أرسطو »
بجميع فروعها ، بينما اهتم بعضهم بالتصوف والأخلاق .

أما فى أوربا - فقد شهدت القرون الوسطى - فى بدايتها -
صراعا عنيفا بين رجال الدين المسيحى والفلاسفة ، وقد
انتهى هذا الصراع بتطويع الفلسفة لتكون فى خدمة الدين
المسيحى .

وقد شهد العصر الحديث انفصال العلوم الخاصة عن الأم
(الفلسفة) فأصبحت هناك فروع مستقلة للمعرفة لكل منها
منهجها ، وذلك مثل الطبيعة ، والكيمياء ، والميكانيكا ،
والجيولوجيا ، والرياضيات ، والتاريخ . . الخ ، وأصبح
الموضوع الأساسى للفلسفة هو العلاقة بين الفكر والوجود
بين الروح والمادة .

والمقصود بكلمة الفكر هنا : « النشاط الروحى للإنسان الذى
يشمل أفكاره ، وعواطفه ، وانفعالاته ، وأحاسيسه ، ووجدانه ،
وارادته ، وشخصيته وآراءه ويطلق عليه اسم « الوعى » ،
و « الذهن » ، و « العقل » ، و « الروح » .

فالموضوع الأساسى للفلسفة الحديثة هو العلاقة بين الفكر والوجود وهو ما يسمى بالعلاقة بين الروح والمادة . وهذا أيضا هو موضوع الفلسفة الماركسية .

ولما كانت الفلسفة الماركسية فلسفة مادية فهى تذهب الى أن المادة والوجود أوليان ، والفكر والروح ثانويان .

والفلسفة الماركسية اذ تهتم أصلا بالعلاقة بين الفكر والمادة - لا تقلل من عنايتها بالعلوم المفردة ، فالفلسفة الماركسية تدعى الشمول وأن منهجها هو المنهج العلمى الوحيد الصالح لدراسة الكون فى شتى مظاهره ، دراسة الكائنات الحية وغير الحية ، والمجتمع الانسانى ، والفكر ، وترى أن هذا المنهج قد أسس على أحدث الانجازات العلمية والعملية الانسانية ، وبدون الاحاطة بهذه الانجازات لا يمكن تطبيق هذا المنهج تطبيقا صحيحا .

وبينما يرى الفلاسفة الوضعيون أن العلم ليس بحاجة الى الفلسفة ، اذ أن له فلسفته الخاصة - يرى الماركسيون أنه لا يمكن الفصل بين الاثنين ، ويشبهون الفلسفة بجذع شجرة ضخمة تنفجر منه مختلف العلوم ، فان قطعت الفروع لم يتبق سوى كتلة من الخشب لا حياة فيها ، وان أزيل الجذع سقطت الفروع جميعا .

(٦) الفلسفة الماركسية والبروليتاريا

رأينا أن الفلسفة الماركسية تقدم نفسها على أنها هى وحدها القادرة على تفسير الطبيعة والمجتمع تفسيراً علمياً ، وتذهب الى أن الطبيعة والمجتمع يتطوران باستمرار تطورا ذاتيا

من الأدنى الى الأعلى ، وبالتالي فهي تقدم نفسها على أنها أداة قوية لاعادة تشكيل الطبيعة والمجتمع ثوريا .

وهى ترى أن طبقة البروليتاريا هى وحدها صاحبة المصلحة فى المعرفة العلمية للطبيعة والمجتمع واعادة تشكيلهما ثوريا ، ومن ثم فالماركسية تقدم نفسها على أنها سلاح ايديولوجى (فكرى) للبروليتاريا فى صراعها ضد الرأسمالية ليقوم على أنقاضها المجتمع الاشتراكى الشيوعى .

ولما كانت الماركسية لا تعترف بثبات النظم الاجتماعية فهى تذهب الى أن الرأسمالية تسير حتما الى الفناء ، وأن انتصار الاشتراكية والشيوعية أمر حتمى ، ولذا كانت الماركسية ثورية بطبيعتها ، كما أنها ترشد الطبقة العاملة الى أساليب بناء الاشتراكية والشيوعية .

(٧) العلاقة بين المادة والفكر

سبق أن ذكرنا أن موضوع الفلسفة الماركسية هو العلاقة بين المادة والفكر ، وهو الموضوع الأساسى للفلسفة الحديثة بعد استقلال العلوم وانفصالها عن الفلسفة .

وقلنا أيضا ان الفلسفة الماركسية – لأنها فلسفة مادية – ترى أن المادة سابقة فى الوجود على الفكر ، اذ الفكر ما هو الا طور من أطوار المادة المنظمة تنظيما فى غاية الرقى – أعنى المخ الانسانى .

وقلنا ان الفكر يعنى النشاط الروحى للانسان ، وهو يشمل أفكاره وآراءه وعواطفه وأحاسيسه وانفعالاته ، وكل ما لا يخضع للتشريح المادى فى الانسان .

ويذهب الماركسيون الى أن الفكر هو نتيجة لتطور طويل للمادة ، فالمادة قد وجدت قبل الانسان ، وقد احتاج تطور المادة الى ملايين السنوات حتى ظهر انسان قادر على التفكير ، فالفكر خاصية من خواص المادة - مادة معينة منظمة تنظيما راقيا .

فالفكر اذا مرتبط بالمادة ، وهو خاصية من خصائص المخ الانساني .

وهم يبرهنون على هذا بأن جميع أنواع النشاط العقلي للانسان تقوم على عمليات فسيولوجية تحدث بصفة خاصة فى القشرة المخية ، وأن أى اختلال يحدث للمخ نتيجة اصابته بمرض أو أذى ينتج عنه اضطراب فى الفكر .

ومن جهة أخرى فالفكر لا يقوم بنشاطه مستقلا عن المادة ، بل هو متأثر بالبيئة المادية للانسان ، فالانسان لا يحس بالطعم واللون والرائحة الا اذا كانت موضوعاتها موجودة فعلا ، هذه الموضوعات - وهى الأشياء المادية المرتبطة بالطعم واللون والرائحة - تؤثر على الحواس ، ثم تنقل الأعصاب هذه التأثيرات الى القشرة المخية حيث تتكون الأحاسيس ، ثم تنشأ عن هذه الأحاسيس المدركات والأفكار والآراء . . . فالفكر اذا عملية من عمليات المادة ، لا تنتم مستقلة عن المادة .

وقد يتصور الانسان شيئا ليس له وجود فى الخارج على هذه الصورة التى يتخيلها الانسان ، غير أن أساس هذه الصورة لابد أن يكون موجودا فى الخارج .

وذهب فريق من الماديين الى أن الفكر شىء مادى يفرزه المخ الانسانى كما يفرز الفم اللعاب وكما تفرز العين الدموع .

أما « سبينوزا » فقد ذهب الى أن الفكر من خواص جميع المواد - وليس المخ فقط - وذلك مثل التمدد والمغنطة .

ويذهب المثاليون الى أن الفكر مستقل عن المادة ، وسابق في الوجود عليها . والفكر له وجود موضوعي خارجي منفصل عن المادة ، ومن ثم فالمثاليون يقولون بالوجود الخارجى الموضوعي للأشياء المجردة عن المادة وهو رأى الدين .

وأن لنا سؤالاً لا نوجهه الى هؤلاء القائلين بأن المادة سابقة في الوجود على الفكر ، اذا كان الامر كذلك فمن الذى أوجد المادة ؟ أن العالم المادى بما فيه من نظام بديع وتناسق جميل لينبىء عن وجود عقل مدبر حكيم هو الذى أنشأ هذا العالم ونظمه ونسقه ، والافمن أين أتى هذا النظام البديع لهذا العالم المادى ؟ ان التنظيم والتنسيق هما من شأن العقل وحده - هذا العقل المدبر الحكيم هو ما يطلق عليه الدين اسم « الله » .

ثم من أين أتاكم القول بأسبقية المادة فى الوجود على الفكر ؟ أنتم قوم لا تؤمنون الا بالعلم القائم على الملاحظة والتجربة والمشاهدة ، وقولكم بأسبقية المادة على الفكر رجم بالغيب ، وأنتم لا تعترفون بالغيب ، وصدق الله العظيم : « ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضداً (١٣) » .

(١٣) سورة الكهف . آية (٥١) .

(٨) قوانين المادية الجدلية

هناك ثلاثة قوانين تعتبر القوانين الاساسية للمادة
الجدلية . هذه القوانين هي :

- ١ - قانون وحدة وصراع الازداد .
- ٢ - قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية .
- ٣ - قانون نفى النفى .

١ - قانون وحدة وصراع الازداد :

هذا القانون يعنى أن التناقض ذو طبيعة عامة في جميع
الاشياء والظواهر ، والكائنات الحية ، والنشاط الذهني .
والطبقات الاجتماعية .

والتناقضات الداخلية تتصارع وفي الوقت نفسه تتعايش
في الشيء الواحد ، ولا يمكن تصور الضد بدون الآخر ، وذلك
مثل القطبين المتضادين في المغناطيس : الشمالي والجنوبي -
يتعارضان ويتعايشان في نفس الوقت ولا يمكن تصور
مغناطيس له قطب واحد فقط .

وفي المجتمعات المختلفة نجد طبقات متضادة مثل فلاحى
الارض والاقطاعيين - فى المجتمع الاقطاعي ، ومثل البروليتاريا
والبورجوازية فى المجتمع الرأسمالى .

والصراع بين الازداد هو المصدر الاساسى لتطور المادة
والفكر والمجتمع ، فان الطبيعة المتناقضة للازداد ، واستبعاد
كل منها للآخر يستدعيان حتما وجود صراع بينها ، وذلك
كالصراع بين القديم والجديد ، وبين الرأسمالية والاشتراكية .

ووحدة الأضداد شرط للصراع ، اذ لا ينشأ الصراع الا حيث
توجد جوانب متعارضة فى شىء واحد .

وهكذا فكل ما فى الكون يحتوى على جوانب متعارضة توجد
فى الشىء الواحد جنباً الى جنب ، ويدور الصراع فيما بينها ،
وهذا هو مصدر التطور .

ومن التناقضات ما هو داخلى وما هو خارجى - ما هو عدائى ،
وما هو غير عدائى - ما هو أساسى وما هو غير أساسى .

فالصراع بين الجوانب المتضادة فى شىء معين هو تناقض
داخلى والصراع بين هذا الشىء وبيئته هو تناقض خارجى .

والتناقضات بين طبقات اجتماعية ذات مصالح متعارضة
لا يمكن التوفيق بينها هى تناقضات عدائية ، لا يمكن حلها فى
ظل النظام الاجتماعى القائم ، وهى لا تحل الا بالثورة
الاجتماعية . وذلك مثل التناقض - فى المجتمع الرأسمالى -
بين البورجوازية والبروليتاريا ، هذه الطبقة الأخيرة يرى
الماركسيون أنها مجبرة على العمل لدى البورجوازية التى
تملك كل شىء من وسائل الانتاج ومن السيطرة السياسية
وأنها تنتج كل الثروة المادية فى حين أنها لا تحصل منها الا
على قدر ضئيل للغاية ، وهى محرومة من كل الحقوق
السياسية ، ومن الاستمتاع بالعلم والثقافة .

ويذهب الماركسيون الى أن الصراع حتم بين البورجوازية
والبروليتاريا ، لان مصالح الطبقتين متعارضة تماماً :
البورجوازية تعمل بكل جهدها على الإبقاء على نفوذها
وسيطرتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بينما
(م - ٣ - الفكر الماركسى)

تحاول البروليتاريا التحرر من الاستغلال السياسى والاقتصادى والاجتماعى - هذا الصراع الحتمى بين هاتين الطبقتين المتعارضتين يؤدى بالضرورة الى الثورة الاشتراكية وهى وحدها القادرة على حل التناقضات العدائية للرأسمالية .

أما التناقضات بين طبقات اجتماعية تتوافق مصالحها الأساسية فهى تناقضات غير عدائية ، كتعارض مصالح العمال مع مصالح الفلاحين فى المجتمع الرأسمالى ، وهى لا تحل بالثورة الاجتماعية . فالفلاح لديه ما يملكه من أرض وحيوانات ومعدات زراعية ، وهو حريص على هذه الملكية ، بينما لا يملك العامل شيئاً يحرص عليه - هذا من ناحية - ومن جهة أخرى فان المدينة فى المجتمع الرأسمالى - تستغل القرية ، التى هى مصدر الغذاء ، وهى محرومة من رفاهية المدينة . وهذا يجعل القرية تحقد على المدينة وتعادىها ، وبالتالي يحقد الفلاح على العامل المقيم بالمدينة ويعاديه ، ومن ثم تتعارض مصالح العمال مع مصالح الفلاحين ، اذ يحرص الفلاح على أن يبيع ما ينتجه للعامل بأعلى سعر ممكن ، بينما يحرص العامل على ان يشتريه بأقل سعر ممكن ، وهكذا يحدث الصدام بين مصالح الطبقتين فى ظل الرأسمالية .

غير أن هذه التناقضات ، ليست عدائية لان الفريقين - وان تعارضاً فى بعض الأمور الا أنهم جميعاً يعانون من الاستغلال - وهذا التلاقى يجعلهم يتساندون ويتحالفون فى صراعهم ضد النظام الرأسمالى .

ومن التناقضات ما هو أساسى وهو عند الماركسين - فى عصرنا هذا عبارة عن التناقض بين قوى الاشتراكية العالمية ، وقوى الامبريالية الرأسمالية . والماركسيون يرون أن الأول

هى طريق التقدم والسلام والجهود البناءة ، وأن الثانية هى طريق الرجعية والقهر والحروب .

٢ - قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية :

الكيف هو : الخصائص التى تميز الشئ عن غيره .

أما الكم فهو : درجة تطور أو كثافة خصائص الشئ .

والتغير فى الكيف يؤدى الى تغير الشئ . أما تغير الكم فإنه لا يلزمه دائماً تغير الشئ ذاته ، ولكن عندما يصل تغير الكم الى درجة معينة ويتجاوزها ينشأ تحول جذرى للشئ ، أى يتحول الكم الى كيف ، وتتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية .

والكم والكيف صفتان لكل الأشياء والظواهر ، وهما مترابطان - وتطور العالم المادى ينتج عنه تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية جذرية على هيئة طفرة .

ولنوضح ذلك كله بالمثال :

عندما تلغى الملكية الرأسمالية وتحل محلها الملكية الاشتراكية فان الصفة الأساسية للرأسمالية - وهى الملكية الفردية - تكون قد تغيرت ، وهذا ينشأ عنه تحول أساسى ، وهو حلول الاشتراكية محل الرأسمالية - هذا تحول فى الكيف ينشأ عنه تحول الشئ من أساسه وانتقاله الى شئ آخر جديد .

ولكن عندما تتمركز الملكية الرأسمالية فى أيدي مجموعة من الاحتكاريين فهذا تغير فى الكم فى حدود معينة ، لا ينشأ عنه تحول جذرى ، لأن التحول الجديد لم يتخل عن صفة الرأسمالية .

ومثال تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية فى العالم المادى : عندما تزيد درجة حرارة الماء عن مائة درجة فان الماء يتحول الى شىء جديد هو البخار ، له خصائص تختلف تماما عن الماء .

والانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية عن طريق الثورة هو تحول من الكم الى الكيف ، فان زيادة نمو القوى الانتاجية ، وزيادة عدد العمال الثوريين ، وغير ذلك من الأمور الكمية تعد شروطا أساسية للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، أى أن تغيرا كميا أدى الى تغير كيفى : تغير كمى فى القوى الانتاجية ، وفى عدد العمال الثوريين نشأ عنه تغير كيفى تمثل فى الانتقال من النظام الرأسمالى الى النظام الاشتراكى .

والانتقال من النظام الرأسمالى الى النظام الشيوعى يستلزم المرور أولا بالنظام الاشتراكى - فالمجتمع يمر بمرحلتين : الاشتراكية والشيوعية ، وهما تختلفان فى درجة التطور الاقتصادى ونوع العلاقات الاقتصادية ، مع أن لهما أساسا اقتصاديا واحدا يتمثل فى الملكية الجماعية لوسائل الانتاج والتعاون المتبادل بين الناس ، والمذهب الواحد غير أن هناك فوارق بين المرحلتين ، فالشيوعية هى أعلى مراحل النظام الاجتماعى والاقتصادى الاشتراكى ففى هذه المرحلة تبلغ وسائل الانتاج أعلى مستوى ، كما يبلغ الانتاج حدا يتكافأ مع المبدأ الشيوعى : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته » بدلا من المبدأ الاشتراكى : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله » ، كما ينشأ لدى الأفراد حافز ذاتى للعمل من أجل المجموع . ومن جهة أخرى تحدث تحولات اجتماعية ، فلن تكون هناك فوارق بين المدينة والريف ، ولا فوارق بين العمل اليدوى والعمل الذهنى ، ويصبح الجميع عمالا فى المجتمع

الشيوعى ، وتختفى الدولة وتحل محلها الادارة الذاتية للشعب . وهذه التحولات لا تتم الا فى ظل مجتمع قد تحرر من الاستغلال ، أى لا تتم الا فى مجتمع اشتراكى ، وهذا يعنى أنه لا يمكن حدوث تحول من النظام الرأسمالى الى المجتمع الشيوعى دفعة واحدة بل لا بد من المرور أولا بالنظام الاشتراكى .

٣ - قانون نفى النفس :

النفس معناه : تغلب الجديد - الذى ينشأ من القديم - على القديم .

أما حلول الجديد محل القديم فهو **التطور** .

وكلمة **النفس** استعملها « هيجل » أولا حين قال : « ان تطور الفكرة يكمن خلف النفس » ثم جاء ماركس ليقول : « ولا يمكن أن يحدث تطور فى أى مجال ما لم ينفأ أشكال وجوده السابقة » .

وكما ذكرنا من قبل فان الأشياء والظواهر - لدى المذهب الماركسى تقوم على التناقض وتتطور على أساس التناقضات الداخلية ، وهى تخلق ظروف موت القديم والانتقال الى جديد أرقى ، والنفس هو نتاج التطور الذاتى ، وهو يعنى : التغلب على القديم من خلال التناقضات الداخلية .

وقانون نفي النفس يظهر التطور كعملية متصلة حلزونية ، وهو تطور يكرر مراحل قد انقضت بالفعل لكنه يكررها بطريقة مختلفة ، وعلى أساس أرقى .

والتطور الحلزونى يظهر فى الحياة الاجتماعية ، فالمجتمع

البدائى كان مجتمعا خاليا من الطبقات ، يقوم على أساس الملكية المشتركة لوسائل الانتاج ، وقد أدى تطور الانتاج الى نفى هذا المجتمع بمجتمع طبقى - هو المجتمع العبودى - نفاه المجتمع الاقطاعى الذى نفتته الرأسمالية التى تنفذها الاشتراكية ، أولى مراحل الشيوعية - وهذا نفى للنفى ، وعود الى نقطة البداية ولكن فى شكل جديد .

وتكرار مراحل ماضية ليس عودة الى القديم ، بل هو ظهور لجديد يختلف جذريا عن القديم ولا يحمل الا تشابها ظاهريا فقط ، فالملكية المشتركة لوسائل الانتاج - فى ظل الاشتراكية - هى تكرار للملكية المشاعة فى المجتمع البدائى - ولكنه تكرار على أساس جديد يختلف تماما - ماديا ومعنويا - عن النظام الشيوعى البدائى .

فالتطور يحدث من خلال نفى الجديد للقديم ، وهذا الجديد يحتفظ بايجابيات القديم ويطورها ، ومن ثم فالتطور يأخذ طابعا تقديميا حلزونيا تكرر فيه المراحل العليا بعض جوانب المراحل الدنيا وهذا هو جوهر قانون نفى النفى .

هذه القوانين الثلاثة الأساسية للمادية الجدلية تفسر تطور العالم المادى وتكشف عن قواه المحركة ، وهى التناقضات الداخلية ، وتلقى الضوء على الطابع الحلزونى للتطور ، وأن الواقع يحقق التقدم بواسطة التغير الدائم للأوضاع الذى يتحقق بنفى الجديد للقديم .

(٩) الأخلاق الماركسية

تبدأ الماركسية أولا بنقد الأسس الأخلاقية القديمة ، ثم تضع قواعد عملية ونظرية لتقييم عليها علم أخلاق جديد .

أ - أما نقد الماركسية للأخلاق القديمة فيتخلص فى النقاط الآتية :

(١) الأخلاق القديمة هى تعبير عن ظروف حياة واقعية لا يمكن تجنبها ، اذ أن قدرة الانسان على التحكم فى الطبيعة كانت محدودة ، ولذا كان لزاما على بنى الانسان أن يضعوا حدا لـرغباتهم .

ولما كان بنو الانسان لا يزالوان ضعافا تجاه الطبيعة ، لم يكن هناك بد من اعتبار « الضرورة » « فضيلة » ، واعطاء قيمة أخلاقية للعجز الحتمى تجاه الموت ، والألم ، ومشاكل الحياة التى لا يمكن القضاء عليها .

ولقد كانت رغبات الفرد تتخطى باستمرار الحدود التى كانت تسمح بها ظروف الحياة ، فقد كان الفرد يتخطى دائما حد **الاعتدال** الى الافراط ، ومن ثم فقد كان ضروريا اعطاء قيمة أخلاقية ، ومعنى من معانى النظام الاجتماعى الى **الاعتدال** ، وبعبارة أخرى الى **الحد** الذى فرضته ظروف الحياة ومستوى التطور على أفراد المجتمع الانسانى . أما الافراد الذين يتحررون من هذا النظام فقد كانوا أحد فريقين :

١ - فريق ضعاف المواهب ، والأكثر عنفا ووحشية .

٢ - فريق العباقرة .

ومن ثم فقد كان المجرمون والعباقرة دائما موضع اللوم الأخلاقى الذى يعبر عن « الوسط » الاجتماعى ، وهو عبارة عن مستوى التطور المادى والروحى الذى بلغه مجتمع من المجتمعات .

٢ - ومن جهة أخرى فان الأخلاق القديمة لم تكن تعبر عن

ظروف الحياة الا بصورة غير مباشرة ، غامضة ، ومن ثم فان القواعد الأخلاقية لم تظهر أبدا فى واقعها العملى وفى معناها الحقيقى ، بل كانت ترتبط دائما بمراسيم وقرارات غيبية ، وبقوى غامضة ، فالأخلاق القديمة - بصفة عامة - كانت اما لاهوتية أو ميتا فيزيقية ، والقواعد العملية للأخلاق القديمة كانت تبجو دائما فى صورة أوامر عليا ، والعمل الذى يتطابق مع المبدأ كان يخلع عليه لقب « الفضيلة » أما العمل الذى لا يتطابق مع المبدأ فقد كان يمنح درجة تقدرها قوة غامضة ، ويأخذ اسم « الاثم » ، « الخطيئة » ، « الرذيلة » ولقد كانت هذه الأسماء والألقاب تمنح بواسطة قوى ذات أصل غامض ، ثم ان هذه الأسماء والألقاب يصعب تحديد معناها بوضوح .

٣ - ولما كانت الأخلاق القديمة تميل دائما الى ثبات المجتمع ، فقد كانت تحارب كل جديد وغريب ، وكانت أية مبادرة من جانب المجرمين أو العباقره - من جانب الهدامين أو المبدعين - تقابل دائما بالرفض فالأخلاق القديمة كانت تفرض دائما الأمر الواقع ، وفى مواجهتها كانت المبادرات الاجرامية والعبقرية تختلط ، ولا تتميز احداها عن الأخرى ، ولا يزال الأمر كذلك حتى يومنا هذا ، فالاستهجان الأخلاقى كان يبدأ بالضرب على يد الفرد الجرىء الذى يخالف المألوف ، فيطعنه فى فكره ، ويشكك الناس فيه .

٤ - ثم ان الاخلاق القديمة تخضع الأفعال والأفكار لعامل وهمى -وعلى سبيل المثال فان الصبر على الآلام يأخذ صورة « فضيلة » هى الاستسلام الرواقى أو المسيحى . ومن ثم فان الموقف البسيط ، الموقف السلبي المحتم يأخذ - عند الأخلاقى - أهمية قصوى وقيمة عظيمة ، وفى اللحظة التى

يصطدم فيها الانسان بالحدود الموضوعة له يعتقد أنه أدرك الأخلاق العليا ، ومن ثم فالتعبير الذى يقول : « العظمة الأخلاقية » ، هو تعبير خداع ، لأن الأخلاق لا عمل لها سوى تقنين وتشريع الواقع الاجتماعى المتوسط فى لحظة ما .

٥ - ومن جهة أخرى فان الأخلاق القديمة كانت تتحول الى أداة سيطرة لطائفة خاصة أو لطبقة معينة ، هى التى تدعى أنها تضع هذه الأوامر الأخلاقية ، أو أنها تمثل السلطة الغيبية ، وقد أوضح « ماركس » أنه لم تكن هناك أبدا أخلاق سادة وأخلاق عبيد ، ولكن أخلاق وضعها السادة للعبيد .

ولقد كان السادة هم الرابحين دائما ، فقد كانوا يستطيعون تأويل الواجبات الأخلاقية أو التملص منها عندما تضايقهم ، ومن ثم فقد كانت الأخلاق القديمة تتحول دائما الى نوع من النفاق أو اللاأخلاقية .

لقد خلقت الأخلاق اللا أخلاقية : **أولا** : لأنها حكمت باللاأخلاقية على كل عمل مخالف للمألوف ، واضطرته بذلك الى أن يحدث فى الظلام بعيدا عن أعين الرقباء .

ثانيا : لأن الطبقات المسيطرة كانت تتحلل دائما من القيم التى تبقى عليها وتدعو اليها المظلومين والمحرومين .

ومن ثم فالماركسية ترى أن الاخلاق القديمة قد صدقت دائما على العلاقات والظروف القائمة وثبتتها بحيث أوقفت حركتها وجعلتها فى خدمة سيطرة الطبقات ذات الامتياز الاقتصادى والسيادة السياسية .

هذه هى أهم الانتقادات التى وجهتها الماركسية الى الأخلاق القديمة .

(ب) ولكن موقف الماركسية من المشكلة الأخلاقية ليس سلبيا فقط ولا نقديا فحسب ، بل انها تدعو الى وضع « علم أخلاق جديد » متحرر من الشعوذة الأخلاقية ومن الوهم المذهبى ، يرفض وضع قيم خارجا عن الواقع بل يبحث داخل الواقع عن الأسس التى تنبنى عليها المقاييس الأخلاقية . فما هى هذه الأسس ؟

١ - يقول الماركسيون : انه فى مجتمعنا الحديث المقسم الى طبقات تلعب طبقة « البروليتاريا » دورا هاما . هذه الطبقة وحدها هى التى تستطيع بواسطة نشاطها أن تضع نهاية للشعوذة الأخلاقية لأنها تحياها وتتئن تحت وطأتها ، وهى وحدها قادرة على تحرير المجتمع والانسان بتحررها ، لأنها تحمل كل أثقال الظلم والاستغلال .

٢ - ولقد قبلت هذه الطبقة - وقتا طويلا - بوصفها طبقة مظلومة - القيم الأخلاقية التى فرضت عليها وأبقت عليها فى دائرة الهوان : استسلام ، ذلة ، قبول سلبى . الخ . ، ولقد كان العامل - بوصفه جزءا من الطبقة المستعبدة - يجد فى الأخلاق تعويضا مصطنعا وهميا ، لقد كان يوصف بأنه « فاضل » ، و « عامل صالح » و « أمين » عندما يقبل - بدون اعتراض - الحدود الضيقة المعوقة لنشاطه .

٣ - ومن جهة أخرى فان الطبقة العاملة - بوصفها طبقة مهضومة - لم تصل الى صنع قيمها الخاصة بها ولا الى فرضها ، فالعمل - وخاصة العمل اليدوى لم يحصل على ما يستحقه من احترام ، بل بالعكس لم يكن ينال الا كل

احتقار ، والمرأة بقيت مستعبدة ، مستغلة ، فالأمومة لم تحصل على حق الاعتراف بها كوظيفة اجتماعية وكقيمة سامية ، والخدمة المنزلية لم يعترف بها كعمل اجتماعي .

٤ - ومن هنا فان الطبقة العاملة الصاعدة ينبغي أن تتصرف بطريقة أخرى ، وتحرر من القيم الوهمية التي أشرنا اليها وتصنع قيمها الخاصة بها كما تصنع بطولتها وفضائلها ، فالعامل بوصفه انسانا مستغلا مستعبدا لا يحتاج الا الى الصبر والاستسلام ، ولكن بوصفه انسانا يشعر بمسئوليته تجاه طبقته ، وبالتالي بالدور التاريخي لهذه الطبقة - فانه في حاجة الى الشجاعة ، والاحساس بالمسئولية ، والحماس ، انه في حاجة الى كسب معارف كثيرة والى اعتبار الوضوح في العمل وفهم المواقف كقيم أخلاقية سامية .

ان العامل المقهور الراضى بالظلم يعتبر الطاعة فضيلة ، ولكنه عندما ينتفض عن طريق الصراع الاقتصادي والسياسي فان النظام والمبادرة ، والشعور بالمسئولية تصبح لديه حتما قيما أخلاقية يجب عليه اكتسابها ، وهو بهذا يساهم في وضع « أخلاق جديدة » تتمكن من حل المشاكل العvisية على الحل - في الظاهر - وعلى سبيل المثال فان حتمية التوحيد بين النظام الجماعي والمبادرة الفردية تستطيع حل الخلاف القديم بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع .

٥ - ولكن هل يمكن وضع قيم أخلاقية بناء على الواقع بدلا من تأسيسها على المثالية المجردة ؟ الماركسيون يجيبون بالايجاب ويضيفون أن المثالية التقليدية - التي يعتبرها الماركسيون احدى الصور المذهبية الميتافيزيقية ، للخل الانسانى - هي وحدها التي تضع المثال خارج الواقع .

والماركسية ترى بناء على هذا - أن الاستسلام والسلبية لم يعودا بعد من الفضائل - لقد كانا فضيلتين عندما لم يكن ممكنا الا ذلك ، أما الآن فقد أصبح شئ آخر ممكنا ، ان سيطرة الانسان على الطبيعة أصبحت من القوة بحيث أضحي الاستسلام والسلبية محكوما عليهما بالانسحاب والدخول فى دائرة « اللامعقول » .

٦ - وتدافع الماركسية عن نفسها ضد من يصفون على « أخلاقها » صفة الضعف والعاطفية اذ تحنو على العامل المظلوم وتبكى على قهره واستغلاله ، فتوضح أنها لا تهتم بالعامل باعتباره ضعيفا جاهلا محكوما عليه من البورجوازية بالالقاء فى مستنقع اللانسانية ، بل بوصفه قوة يجب أن تتمثل المعارف الانسانية وتغنيها بالاضافة اليها ، قوة تحمل فى داخلها مستقبل الانسان ، وتلقى فى مستنقع اللانسانية غرور « البورجوازية » وخيلاءها فالماركسية اذا ترى فى طبقة العمال كل مستقبلها وطاقاتها .

وهكذا فالماركسية ترى أنه فى المذهب الفردى ذى الأصل البورجوازى أخذ الوهم المذهبي الأخلاقى الميتافيزيقى أبعادا هائلة فان الفرد كان يعتقد فى نفسه الكمال فى الوقت الذى لا يزال فيه فى دور التخطيط الذى يسبق أى مشروع .

(١٠) المادية التاريخية

المادية التاريخية هو الاسم الذى يطلق على الماركسية بوصفها علم اجتماع مؤسسا على قواعد علمية .

وعلم الاجتماع الماركسى يرى أنه لا يوجد الا الافراد وعلاقاتهم ، أما المجتمع فلا وجود له خارج الأفراد الذين

يتكون منهم لا وجود اذا لما يسمى بروح الشعوب او روح الجماعة • انها أوصاف غيبية قد تخيلها علماء الاجتماع الذين يعتقدون فى أنفسهم صفة « العلمية » فى حين أنهم - فى واقع الأمر - ليسوا الاميتافيزيقيين •

ترى الماركسية ان الافراد هم الذين يصنعون حياتهم الاجتماعية وتاريخهم والتاريخ العام ، ولكنهم لا يصنعون التاريخ فى الظروف التى يختارونها بأنفسهم وباراداتهم - فالانسان منذ بدء البشرية - سواء أكان فرديا أم اجتماعيا - هو كائن ذو نشاط ، بيد أن نشاطه ليس كاملا ولا حرا • ففى كل نشاط واقعى لكل انسان لا يمكننا أن نتجاهل وجود شىء من السلبية التى تقل شيئا فشيئا مع التقدم الانسانى فى مجال القوة والشعور ، ولكن هذه السلبية لا تختفى أبدا ، وبعبارة أخرى : ينبغى أن نحلل جدليا كل أنواع النشاط الانسانى ، فالنشاط والسلبية يتجاوران ويختلطان فى كل عمل •

والفرد يخضع لظروف خارجة عن ارادته أثناء محاولة التحكم فى الطبيعة والعالم الذى يحيط به ، من هذه الظروف : الطبيعة ذاتها ، وطبيعته هو نفسه ، والأفراد الذين يحيطون به ، وطريقة النشاط ووسائله : (الآلة - تقسيم العمل وتنظيمه ... الخ) •

وأفراد النوع الانسانى يدخلون فى علاقات اجتماعية محددة بسبب نشاطاتهم المختلفة ، وهم لا يستطيعون الانفصال عن هذه العلاقات اذ أن وجودهم يتوقف عليها كما تتوقف عليها طبيعة نشاطهم وحدوده وامكانياته ، ومن ثم فان العلاقات التى يدخلون فيها حتما - اذ أنهم لا يستطيعون الفكك منها - تشكل الوجود الاجتماعى لكل فرد ، هذا الوجود الاجتماعى هو الذى يحدد الشعور وليس العكس ، وهكذا فالفلاح له

شعور وأفكار الفلاح ، وليس شعوره ولا أفكاره هي التي تصنع علاقته بالارض ، ولا تنظيم عمله ، ولا آلاته ، ولا علاقاته بجيرانه ، وبقريته ، وباقليمه ، وبوطنه . . الخ .

ولكن ، ما هي هذه العلاقات الاجتماعية أساسا ؟ انها علاقات في غاية التعقيد . هل يمكن تمييز الأساسى منها من غير الأساسى ؟ تجيب الماركسية بالايجاب ، فهناك علاقات أساسية ، اذ أن بناء كل مجتمع يقوم على قاعدة ، **والعلاقات الأساسية** في كل مجتمع هي عبارة عن علاقاته **مع الطبيعة** ، فهي أساسية بالنسبة للانسان لانه يصارع الطبيعة ، وهو في هذا الصراع - وفي الظروف الطبيعية - ينتزع من الطبيعة ما يجب انتزاعه ليحفظ حياته ، ووسيلته في ذلك هو العمل وأدوات العمل وتنظيم العمل ، وهكذا فالانسان ينتج حياته بدون أن ينفصل عن الطبيعة .

ومن ثم فان العلاقات الأساسية لكل مجتمع هي **علاقات انتاج** تمثل العلاقات الأساسية للانسان مع الطبيعة ، وللانسان مع أخيه الانسان في العمل .

هذه العلاقات - علاقات الانتاج - تتوقف على ثلاثة عوامل :

١ - الظروف الطبيعية .

٢ - الظروف التكنولوجية .

٣ - تنظيم وتوزيع العمل .

هذه العوامل الثلاثة تشكل ما يسمى في عرف الماركسية : **القوى الانتاجية** لمجتمع من المجتمعات .

هذه القوى الانتاجية تتطور مع الزمن ، وهي في تطورها

تحتفظ بخصائص المسيرة الطبيعية للتاريخ ، اذ لا يمكن التحكم فى هذا التطور ولا الشعور به ولا يخضع لارادة الانسان - مع أنه يتعلق بنشاطه ومنتجات هذا النشاط - وهذا بعينه يتطابق مع مسيرة تاريخ الشعوب والنظم والافكار .

ونمو القوى الانتاجية وسيطرة الانسان على الطبيعة يمر بمراحل ومستويات فهذه القوى الانتاجية وتلك السيطرة تتوقف على مستوى الحضارة الذى يدركه مجتمع ما ، ولذلك كانت لها أهمية تاريخية كبرى ، اذ أنها تحقق الوجود الاجتماعى للانسان فى لحظة ما ، وبالتالي فهي تحقق الصيغة التى يبرز فيها شعوره وثقافته .

أما العامل الثالث - وهو تنظيم وتوزيع العمل - فهو يرتبط بظاهرة اجتماعية فى غاية الأهمية ، اذ انه يتضمن وجود **الملكية الخاصة** ، لأن الآلات ووسائل الانتاج اذ تتنوع وتعدد تصبح تحت سيطرة مجموعات وأفراد متنوعين . . ومتعدين . والأرض أيضا - بوصفها احدى وسائل الانتاج - تلقى نفس المصير . وتقسيم العمل آنذاك يعنى عدم المساواة فى العمل ، فوظائف الحكم مثلا تتميز عن العمل اليدوى . وهذا التنوع فى العمل بين عمل راق وعمل منحط لا تثريب عليه لو أنه يتوقف على مستوى تطور الفرد ، ولو أن الوظائف العليا اسندت الى الأفراد الأكثر كفاءة للقيام بهذه الأعمال (وهو ما يحدث غالبا فى المجتمعات البدائية) . ولكن لما كان تنوع الأعمال بين راقية ومنحطة يصحب تكون الملكية الفردية فاننا نجد - على مدى التطور التاريخى - أن هاتين الظاهرتين الاجتماعيتين تؤثر احدهما فى الأخرى ، فالوظائف العليا تسمح باحتكار وسائل الانتاج التى تصبح وراثية وتنتقل الى الورثة كالعقارات ، والأعمال اليدوية تجد نفسها مستبعدة عن الملكية

كما استبعدت عن الوظائف العليا التى لم تعد تسند الى الأفراد الأكثر كفاءة ، ولكن الى الأفراد والمجموعات حسب درجتهم فى الملكية - وبعبارة أخرى فان الافراد يصلون الى الوظائف العلمية والسياسية والادارية بسبب ثروتهم وملكيّتهم الخاصة لا بسبب قيمتهم الاجتماعية . ومن هنا تظهر الطبقات .

والبناء الاجتماعى - الذى لم يعد ينظر اليه باعتبار علاقته بالطبيعة ، وهو ما يطلق عليه القوى الانتاجية ، ولكن باعتباره تنظيما للملكية وللوظائف الاجتماعية والطبقات - هذا البناء الاجتماعى يسميه « ماركس » طريقة الانتاج .

ومن هنا يتبين لنا أن القوى الانتاجية وطريقة الانتاج أمران متلازمان لا يمكن الفصل بينهما ، فالقوى الانتاجية تحدد طريقة الانتاج ، كما أن الآلة وتوزيع العمل أمران مترابطان ، ومع ذلك فان هذه الأمور كلها تتمتع باستقلال نسبي ويؤثر كل منها فى الآخر ، فكما أن توزيع العمل يتطور مستقلا عن الآلة ، كذلك فان طريقة الانتاج تتغير مستقلة عن القوى الانتاجية .

وقد أشار « ماركس » الى التعاقب التاريخى لعدد من طرق الانتاج - هذا التعاقب قائم على أساس من التطور التدريجى للقوى الانتاجية ، وعلى التحليل لبناء توزيع العمل والملكية والوظائف الاجتماعية والطبقات :

١ - فلنترك جانبا الشيوعية البدائية لنرى ظهور ما يسمى بالطريقة القبلية للانتاج التى تمتاز بصورة خاصة للملكية وهى ملكية العائلة أو القبيلة ، كما تمتاز أيضا بتنوع الوظائف والطبقات ، ففيها تظهر سيادة الرجال وسلطة القبيلة أو رب الاسرة .

٢ - ثم يلي ذلك ظهور الاقتصاد القائم على الرق - وهو ما يسمى **بالمجتمع العبودى** ضمن ظروف من التقدم الفنى تسمح باستخدام الرقيق . هذا النوع من الاقتصاد يتجه نحو تكوين طبقة من السادة ، والانتقال الوراثى لوظائف القيادة العسكرية والسياسية والوظائف العلمية والملكية .

٣ - يأتى بعد ذلك **الاقتصاد الاقطاعى** ، وهو يتضمن استغلال طبقة عسكرية لطبقة من المنتجين المرتبطين بالارض وهم فلاحو الأرض .

٤ - ثم يأتى بعد ذلك **الاقتصاد الرأسمالى** .

غير أن هذا التعاقب التاريخى لطرق الانتاج وجد بصفة خاصة فى أوروبا الغربية، وقد تعايشت هذه الطرق المختلفة وأثرت كل واحدة فى الأخرى بدون وجود حدود بينها رغم تمايزها . ثم ان بعض هذه الطرق يحتوى على فروق داخلية ، فالاقطاع الآسيوى يختلف عن الاقطاع الأوروبى . وكل واحدة من هذه الطرق قد مرت بمراحل متعددة من النمو والازدهار والانحدار ثم الأزمة القاضية .

وعندما نحلل **القوى الانتاجية** نجد أن نوعا من الصراع يحتل المكان الأول ، هو صراع الانسان ضد الطبيعة .

وعند تحليل **طرق الانتاج** نجد أن هناك أنواعا متعددة من الصراع ، أهمها هو **صراع الطبقات الاجتماعية**، صراع الانسان ضد الانسان ، كما نلاحظ استغلال الانسان للانسان الذى يبدو كظاهرة أساسية .

وعند تحليل البناء الاقتصادى الاجتماعى لمجتمع من المجتمعات نلاحظ ثلاثة جوانب :

(م ٤ الفكر الماركسى)

١ - جانب طبعى حيوى تلقائى هو عبارة عن العلاقة العملية بين الانسان والطبيعة وسيطرته عليها التى تنمو وتتزايد مع تطور النوع الانسانى .

٢ - جانب ناشئ عن التدبر والتفكير ، وهو عبارة عن التطور التكنيكى ، وتكوين المعرفة العلمية والعقل والثقافة .

٣ - جانب وهمى وهو عبارة عن توزيع العمل الذى ينشأ عنه الأوهام المذهبية ، اذ أنه فى اللحظة التى يظهر فيها العمل العقلى - عند توزيع العمل - ويتجه الى التخصص ، فان الشعور يتحرر من الواقع ويتخيل أنه شئ آخر غير شعور العالم الانسانى ويندفع نحو السحب المذهبية .

البناء الفوقى للمجتمع :

وهناك ما يسمى بالبناء الفوقى للمجتمع وهو عبارة عن مجموعة القوانين والأفكار الناشئة عن الاحداث التاريخية والمبادرات الفردية فى اطار بناء اجتماعى معين ، وهو يتضمن بصفة خاصة النظم القضائية والسياسية والمذاهب والأديان .

والبناء الفوقى يعبر عن طريقة الانتاج أى عن علاقات الملكية . فالمذاهب تعبر عن هذه العلاقات ، خصوصا عندما تكون المظاهر المذهبية مقصودة لاختفاء حقيقة هذه العلاقات .

هناك اذا ثلاثة عناصر لكل نظام اقتصادى اجتماعى ، عناصر متمايزه مع أنها مترابطة أى أنها تتصارع باستمرار ويؤثر بعضها فى بعض ، هذه العناصر الثلاثة هى :

١ - القوى الانتاجية . ٢ - طريقة الانتاج .

٣ - البناء الفوقى .

(١١) الاقتصاد الماركسى

(أ) نقد الاقتصاد الرأسمالى :

يذهب الماركسيون الى أن النظام الرأسمالى يبدو لنا فى الظاهر بسيطاً واضحاً مألوفاً ، ولكنها مجرد مظاهر خداعة ، اذ أن هذا النظام - فى حقيقة الأمر ، وعند التحليل العلمى - يبدو فى غاية التعقيد ، فالشخص العادى الذى ينخدع بالمظاهر والذى لا يغوص فى أعماق الرأسمالية ليكتشف حقيقتها لا يرى فى هذا النظام الا ما هو بسيط وواضح ومألوف ، فهناك الثنقود ، والثروة والممتلكات ، وآلات الانتاج ، وأناس يعملون ، وآخرون لا يعملون ، وهذا كله فى غاية الوضوح والبساطة والالف .

هذا هو موقف الانسان البسيط العادى من هذا النظام ، أما الاقتصاداديون المحترفون من غير الماركسيين فانهم يصلون الى اكتشاف بعض الجوانب المعقدة فى هذا النظام ، ولكن نقدهم له يحتاج الى كثير من التطوير ، وهو يتجافى عن المعرفة العقلية ، فهم فى الواقع يتأرجحون ويترددون بين نوعين من الأنهم ، **فالبعض منهم** يتحدث عن تخطيط الحقائق الاقتصادية غير المترابطة التى ينفصل بعضها عن بعض ، وتنفصل جملة عن النشاط الانسانى فهى بالتالى ساكنة وبدون حياة ، **وآخرون منهم** ، وهم المنتمون الى المدرسة الليبرالية يحاولون بكل عناد أن يجدوا نوعاً من الاتساق والانسجام ، أو قانوناً للانسجام بين هذه الحقائق الاقتصادية المنفصلة ، وكلاً الفريقين - على أية حال - يتجه الى وصف الرأسمالية من الداخل باعتبارها حقيقة ثابتة لا يمكن التحكم فيها ولا السيطرة عليها ، كلاً الفريقين - من جهة أخرى - يميل

الى اصفاء أهمية قصوى على ظواهر اقتصادية اعتبارية
مثل مبادرات الافراد ، ومقاصد المشتريين والبائعين ، وحاجات
ورغبات الافراد . . . الخ .

صحيح أن السلعة الاقتصادية - كالعقار مثلا - تستدعى
وجود مبادرات ، ورغبات ، وتفضيلات ، ولكن هذه الأحوال
الانفسية - لا تصنع هي السلعة - فضلا عن ذلك فان الحاجة
أو الرغبة نفسيهما ينبغي تفسيرهما - وهما في الواقع تفسران -
بالتاريخ الاجتماعي للانسان .

ان اساس وجود أى مذهب مثالى هو أن التفكير غير الجدلى
يعزل ويفصل الفاعل عن المفعول ، والفكر عن الطبيعة ، والعقل
عن الصيرورة والتحول ، والشعور عن شروطه الموضوعية ،
فالاقتصاديون المنتمون الى المدرسة المثالية يعزلون الاقتصاد
وعلم الاقتصاد ويبعدونهما ليس فقط عن كل منهجية عامة ،
بل عن كل ما هو انسانى وعن التاريخ الانسانى . فهم عندما
يفصلون - عن طريق الوصف أو التحليل السطحى - بين حقائق
اقتصادية ، فانهم بهذا لا يضيفون شيئا ذا بال الى علم
الاقتصاد السياسى القائم على أسس علمية .

أما الماركسيون فعلى العكس من هذا يؤكدون أنه لا توجد
حقائق اقتصادية قابلة للعزل ، فعند ماركس - خلافا للشائع -
لا يتمتع علم الاقتصاد السياسى بأى حق لاعتباره علما
مستقلا قائما على حقائق اقتصادية مدعاة . اذا ما هو ؟
انه علم تاريخى يكتشف قوانين تاريخية أى قوانين صيرورة ،
ويهتم بنظام اقتصادى اجتماعى معين - وهو الرأسمالية من
حيث بناؤها ومن حيث صيرورتها .

ومن هنا يتضح لماذا كانت الرأسمالية عاجزة عن أن تعرف

علميا الا لهؤلاء الذين يضعونها فى اطار الصيرورة والتاريخ ، هؤلاء الذين يتناولون ولادتها ونموها وازدهارها ثم انحدارها وأخيرا اختفاءها ، وبعبارة أخرى : هؤلاء الذين يحددونها فى اطار تاريخها الكلى .

ان البناء الجدلى (التناقضى) للرأسمالية يتم اكتشافه عندما يتم التوقف عن عزل بعض الحقائق مع اصفاء أسماء فخمة عليها مثل : حقائق اقتصادية ، عوامل اقتصادية ، نشاط اقتصادى ، وهلم جرا .

فعلى سبيل المثال ، عندما نتناول أحد الرأسماليين الصناعيين الذى يعمل على تجديد آلات مصنعه ، ويشترى ماكينات حديثة ، ويستثمر رؤوس أموال جمعها من أرباح سابقة أو اقترضها ، فالاقتصاد الرأسمالى ينتهز الفرصة لوصف النشاط الاقتصادى لهذا الفرد ومبادرته الحرة وحرصه على أن لا يستهلك كل أرباحه وانسجام المصالح الذى جعله يجد من يقرضه نقودا فى اللحظة التى أراد فيها أن يقترض .

ولكننا عندما نكف عن الفصل بين هذه الحقائق الاقتصادية وعن وصف جوانبها النفسية السطحية فاننا سنجد أن الرأسمالى الذى يجدد آلات مصنعه لا يتصرف غالبا بناء على حرية المبادرة الفردية ، فان حرية المبادرة عند هذا الرأسمالى تنحصر فى رغبته فى الحصول على ايراد سريع لانتاج الآلة ، وأن يزيد من قوة العمل ، ويزيد من استغلال عماله بقدر ما يستطيع - فهو عندما يجدد آلاته فلانه مضطر الى ذلك ، لماذا ؟ لأن عماله يقاومون زيادة العمل ، وبسبب المنافسة مع غيره من الرأسماليين ، وبعبارة أخرى فان حرية المبادرة لدى هذا الرأسمالى ليست الا جانبا شخويا سطحيا لشيء أوسع وأكثر موضوعية وتناقضا - أعنى تناقضات الطبقات ، وتناقضات داخل الطبقة الرأسمالية بسبب وجود المنافسة .

والرأسمالية الاحتكارية تقدم لنا ظواهر أصلية فى هذا المجال والماركسية توضح كيف أن الرأسمالية الاحتكارية قد نشأت - بطريق الحتمية - عن الرأسمالية القائمة على حرية المنافسة ، وكيف أنها رأسمالية فى طريق الانحدار ، أو بعبارة أوضح : فى طريق الانحدار الحتمى للرأسمالية .

والميل الى التوازن فى المجتمع الرأسمالى هو نزاع دائم مع الميل الى هدم هذا التوازن ، وهذا الأخير ينتصر حتما عندما تظهر أزمات دورية تقليدية ثم الأزمة العامة التى تهز الرأسمالية فى اللحظة التى يستخدم فيها تناقض رأس المال (الاحتكارات) الخداع المذهبى من أجل تنظيم داخلى لرأس المال .

ان المجتمع البورجوازى قد تكون فى لحظة معينة من التاريخ على أساس من تطور القوى الانتاجية ، ولقد كان للبورجوازية رسالة تاريخية هى عبارة عن تطوير هذه القوى الانتاجية بتحطيم حواجز طريقة الانتاج الرأسمالية السابقة . ومنذ ذلك الحين فان طريقة الانتاج الرأسمالية قد أصبحت بدورها عائقا لتطوير قوى الانتاج ، اذ أن طريقة الانتاج تدخل فى خلاف دائم مع قوى الانتاج وهو خلاف واجب الحل . ان الرسالة التاريخية للبورجوازية قد انتهت ، ولأنها طبقة فى طريق الانحدار فانها لم تعد تدافع عن نفسها الا بالعنف أو الحيلة ، اذ أن الظروف التى كانت تسمح بسيطرتها قد انتهت . لقد أصبحت « البروليتاريا » هى صاحبة الرسالة التاريخية لحل الخلاف وللمصالحة بين طريقة الانتاج وبين القوى الانتاجية المتضاعفة .

ومن ثم فان الشيوعية تعدل وتقوم الطابع الاجتماعى للعمل الذى يدخل فى تناقض مع الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ،

انها تتجاوز التوزيع الجزئى للعمل ، وبعبارة أخرى : ان هذا التوزيع الجزئى للعمل الذى كان يحدد الملكية الخاصة لوسائل الانتاج قد انتهى باختراع الماكينات الحديثة والمصانع الكبرى ، وهو يتجه الآن نحو صور جديدة . ان النشاط التحررى لطبقة « البروليتاريا » هو وحده القادر على تحقيق هذه الصور الجديدة ، ومن هنا يتضح أن القوانين الداخلية للرأسمالية هي قوانين تاريخية جدلية ، هي قوانين صيرورة وتحول تقود المجتمع من خلال تناقضات متعددة نحو نهاية حتمية لهذا النظام .

(ب) بعد هذا النقد الذى توجهه الماركسية الى النظام الاقتصادى الرأسمالى يمكننا أن نتحدث بايجاز عن المبادئ الأساسية للاقتصاد الماركسى :

١ - جدلية قوى الانتاج وعلاقات الانتاج :

ان عدد الناس فى هذا الكون يتزايد باستمرار كما تتزايد احتياجاتهم ، فالانسان البدائى كان قليل الحاجات : طعام خشن وجلد حيوان ومأوى ونار . أما فى يومنا هذا فان المطالب المادية والمعنوية للانسان قد تضخمت جدا ولا توجد وسيلة لاجابة هذه المطالب الا التوسع المستمر فى الانتاج والتحسين الدائم له ، وتاريخ المجتمع الانسانى ما هو الا عبارة عن تطور الانتاج .

وتطور الانتاج يبدأ بتغير فى القوى الانتاجية التى تتكون من أدوات الانتاج والعمال ، وتطور الأدوات يبدأ أولا بقصد الحصول على أقصى ما يمكن من الثروة المادية بأقل جهد مبذول ، ومع تحسن أدوات الانتاج يتطور الناس الذين يستخدمون هذه الأدوات حيث تزيد خبراتهم ومعارفهم ، ثم

تتغير علاقات الانتاج التى هى عبارة عن العلاقات بين الناس
فى العمل .

وعلاقات الانتاج أشد بطئا فى التطور ، وهى لا تستطيع
مسايرة تطور القوى الانتاجية لأنها أكثر ثباتا فتدخل فى
تناقض معها ، وكلما ازداد تطور القوى الانتاجية ازدادت حدة
التناقضات بينهما حتى تصل الى نزاع ويصبح حتميا قيام
ثورة اجتماعية تقضى على علاقات الانتاج القديمة وتقيم على
أنقاضها علاقات انتاج جديدة .

٢ - العلاقة بين البناء التحتى والبناء الفوقى :

البناء التحتى لمجتمع ما هو عبارة عن علاقات الانتاج المادية ،
وهى التى تشكل البناء الاقتصادى للمجتمع ، ويتحدد شكل
هذا البناء بحالة القوى الانتاجية .

والبناء التحتى هو الأساس الذى يقوم عليه **البناء الفوقى** ،
وهو عبارة عن مجموع الأفكار السياسية والقانونية والفلسفية
والأخلاقية والدينية للمجتمع ، كما يتناول العلاقات والتنظيمات
التى تتفق مع هذه الأفكار ، وله دور هام فى التعبير عن موقف
الناس من البناء التحتى ، فالآراء المختلفة تساهم فى دعم
أو تحطيم البناء التحتى ، كما أن البناء الفوقى له أهميته
الكبرى فى تطوير القوى الانتاجية .

٣ - الاشتراكية :

مع النمو الهائل لقوى الانتاج فى المجتمع الرأسمالى تعجز
علاقات الانتاج عن التوافق معها ، وتتحول الى معوقات
لتطورها ، ومن ثم ينشأ التناقض بينهما ، حيث نجد الملايين
من العمال يبذلون من جهودهم فى مصانع كبرى ويشتركون فى

الانتاج فى الوقت الذى تمتلك فيه ثمار عملهم مجموعة صغيرة ممن يملكون وسائل الانتاج ، ومن هنا يحدث التناقض الأساسى للرأسمالية .

وفى نهاية القرن التاسع عشر ظهرت « الامبريالية » التى هى عبارة عن آخر مراحل الرأسمالية ، اذ تقوم « الامبريالية » على سيطرة الاحتكارات بدلا من المنافسة الحرة ، فتقوم اتحادات ضخمة للرأسماليين يحتكرون انتاج وتسويق الجانب الرئيسى لسلعة ما بهدف الحصول على أعلى الأرباح ، ولهذا يبالغ « الامبرياليون » فى استغلال الطبقة العاملة فى بلدانهم وفى المستعمرات التابعة لها .

واذا كانت هناك تناقضات بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج فى المجتمع الرأسمالى فان الامبريالية تزيد من حدة هذه التناقضات التى تؤدى الى البطالة والأزمات الاقتصادية التى تنتهى الى صراع عنيف بين « البورجوازية » و « البروليتاريا » وتشكل الأساس الاقتصادى للثورة الاشتراكية .

والانتاج الاشتراكى يقوم على الملكية الجماعية ، والأسس التى يقوم عليها المجتمع الاشتراكى تتشكل فى ظل النظام الرأسمالى - وهى عبارة عن الزيادة الكبيرة فى الانتاج الآلى ودرجة عالية من تركيز العمل وتوزيعه ومن التقدم العلمى والتكنيكى . كما أن الطبقة التى تقوم بالثورة الاشتراكية - وهى طبقة العمال - تتكون فى ظل النظام الرأسمالى وتقوم بتنظيم حزبها .

وهناك شكلان للملكية الاشتراكية :

١ - ملكية الدولة ، وهى ملكية تنتمى الى الشعب كله
ممثلا فى الدولة الاشتراكية .

٢ - ملكية المزارع الجماعية التعاونية .

والمبدأ الاشتراكى فى التوزيع هو : من لا يعمل لا يأكل .
وعلاقات الانتاج الاشتراكية تقوم على :

١ - الملكية الجماعية لوسائل الانتاج .

٢ - المساعدة المتبادلة بين الشعب العامل المتحرر من
الاستغلال .

٣ - المبدأ الاشتراكى : « من كل حسب قدرته ولكل حسب
عمله » .

وهى بهذا تقضى على ما يسمى بالتناقض العدائى بين الطابع
الجماعى للانتاج والملكية الخاصة ، هذا التناقض العدائى الذى
هو أبرز سمات الرأسمالية .

٤ - دكتاتورية « البروليتاريا » :

دكتاتورية « البروليتاريا » - بمعنى استيلاء طبقة العمال
على السلطة السياسية - تشكل أحد الشروط الأساسية
للاقتصاد الاشتراكى ، اذ تتركز وسائل الانتاج الأساسية فى
يد الدولة « البروليتارية » التى تنظم علاقات الانتاج
الاشتراكية فى المدينة والريف بأسلوب مخطط .

٥ - الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية :

ان البناء « الفوقى » للدولة الاشتراكية يعتبر عاملا هاما
فى بناء الشيوعية . والمجتمع الاشتراكى - معتمدا على هذا

البناء الفوقى ينمو متجها نحو الشيوعية التى تعتبر المرحلة العليا للاشتراكية ، ويعتمد ذلك أيضا على تطور الانتاج الاشتراكى الى الانتاج الشيوعى أى بناء القاعدة المادية والتقنيكية للشيوعية .

والشيوعية تعنى وفرة الثروة حتى يتحقق الاشباع الكامل لمطالب الناس ، ومن ثم كان بناء القاعدة المادية والتقنيكية للشيوعية هو المهمة الاقتصادية الأساسية للبناء الشيوعى ، هذا البناء الذى ييسر تطوير علاقات الانتاج وتكوين مجتمع خال من الطبقات ، والقضاء على الفروق بين المدينة والقرية وبين العمل الذهنى والعمل اليدوى .

وتستند كل من علاقات الانتاج الاشتراكية والشيوعية على الملكية الجماعية لوسائل الانتاج ، لكن تمتاز الشيوعية بأن الملكية فى ظلها ذات نوع واحد ، هى ملكية شيوعية تخص كل أفراد المجتمع بدلا من ملكية الدولة والملكية التعاونية فى ظل الاشتراكية .

ولكن ما هى الشيوعية ؟

يرى الماركسيون أن الشيوعية هى « نظام اجتماعى لا طبقى يسوده شكل واحد من أشكال الملكية العامة لوسائل الانتاج ، ومساواة اجتماعية كاملة للجميع ، وفى ظلها سيصاحب التطوير الشامل للشعب نمو القوى الانتاجية من خلال التقدم المستمر للعلم والتكنولوجيا ، وسوف تفيض منابع الثروة التعاونية بوفرة متزايدة وينفذ المبدأ القائل :

« من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته » . .

ويذهب الماركسيون الى أن أهم مميزات النظام الشيوعى هى :

١ - أحداث تحولات أساسية فى المجتمع فى نواحى الانتاج والعلاقات الاجتماعية والثقافية ، كما يتم حدوث انقلاب فى أسلوب الحياة وأفكار الناس ، ويتوفر للجميع الظروف التى تحقق أسمى ما يطمح اليه الانسان .

٢ - القضاء على الطبقيه وعلى الفروق بين المدينة والقرية ، والمساواة فى المستوى الثقافى والتكنيكى بين المثقفين والعمال ، ومن ثم ينتهى الفرق بين العمل الذهنى والعمل اليدوى ، ويصبح الجميع عمالا فى المجتمع .

٣ - تمتع جميع الأفراد بظروف متساوية فى العمل والتوزيع ، ويتم الانسجام التام بين الفرد والمجتمع ، اذ يتم الارتباط الكامل بين مصالح الفرد والمجتمع .

٤ - الوصول الى ثقافة عالمية لكل البشر .

٥ - تكوين انسان يتحلى بصفات حب العمل والنظام والاخلاص للمجتمع الأمر الذى يدفع العامل الى التنظيم والدقة نتيجة شعوره العميق بالواجب نحو المجتمع .

٦ - تحقيق الهدف النهائى : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته » .

وواضح ان جميع هذه الخصائص لم تتحقق حتى يومنا هذا ، ولذا يرى الماركسيون أن الشيوعية هى الغاية التى يحاولون الوصول اليها ، ومن ثم فالدول التى تطبق فى يومنا هذا المبادئ الماركسية هى دول اشتراكية فى الطريق الى الشيوعية .

مراجع الباب الأول

* لقد كان جل اعتمادنا فى تحرير هذا الباب - الخاص بالعرض التحليلي للماركسية فى مختلف جوانبها الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية - على المراجع الآتية :

- ١ - ف . ج . افاناسييف : أصول الفلسفة الماركسية : ترجمة :
حمدى عبد الجواد ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، دار الطباعة الحديثة .
2. J. Y. Calvez, La pensée de Karl Marx, Ed. du Seuil, Paris, 1956.
3. Henri Lefebvre; Le Marxisme ; Paris, 1965, P.U.F.
4. Henri Lefebvre, Pour connaître la pensée de Marx, Paris, 1948.
5. Henri Lefebvre, Pour connaître la pensée de Lénine, Paris, 1957.
6. Henri Lefebvre, Le Matérialism dialectique, Paris, 1939.
7. Karl Marx, Introduction à la Critique de l'économie politique, trad. franc. Paris, 1857.
8. Karl Marx, Salaires, prix et profit, trad. franç., Paris, 1945.